الفكر الوحدوي لدويلات المدن في بلاد الرافدين
الضرورة والتحديات

The unitary thought of city-states in Mesopotamia: Necessity and challenge

أ.م.د. مروان نجاح البلام

Marwan najah albalam

ed.marwan.najah@uoanbar.edu.iq

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم التاريخ

الفكر الوحدوي لدويلات المدن في بلاد الرافدين الضرورة والتحديات

أ.م.د. مروان نجاح البلام

الكلمات الافتتاحية: وحدة، فلسفة الحكم، دويلات المدن ،اتحاد قسري، هدم الاسوار

Introduction

The environment played a major role in the unity and cohesion of the inhabitants of the Sumerian city-states. The Sumerian described himself as *ki-an-gi* ("the inhabitant of the land of the Lord of the Reeds"), which is the highest expression of a unifying thought that reflects a profound concept of citizenship emphasized by the Sumerians. This concept came to occupy an important place in the philosophy behind constructing the system that governed Sumerian society.

Unity in political, religious, social, and economic thought laid the foundations for an advanced civilization that taught the ancient world writing and produced one of the greatest cultures in history.
Thus, unity in the civilization of Mesopotamia was not limited to politics alone. The city-states of the Early Dynastic Period developed a harmonious intellectual framework that outlined a unified vision across all aspects of life, and unity in governance was merely the culmination of this coherence.

Reaching such a result was not a coincidence; the inhabitants of Mesopotamia endured harsh environmental challenges. The rains were destructive, often collapsing the roofs of houses; hail crushed the stalks of wheat and barley before harvest; and the severe, untimely floods destroyed their crops. Added to this were internal conflicts between the city-states and external threats, the most dangerous of which were invasions that left cities in ruins.

المقدمة:

كان للبيئة دور في وحدة وتجانس سكان دويلات المدن السومرية، فوصف السومري نفسه كي ـ ان ـ جي (ساكن ارض سيد القصب)، وهو اسمى وصف للفكر الوحدوي يعبر

عن مفهوم عميق للمواطنة الذي اكد عليه السومري، ليحتل مكانة في فلسفة بناء النظام الذي يسير عليه المجتمع السومري، فالوحدة في الفكر السياسي والديني والاجتماعي والاقتصادي ارسى مدنية راقية صنعت حضارة علمت العالم القديم الكتابة وانتجت اروع حضارة في التاريخ. فالوحدة في حضارة بلاد الرافدين ليس مفهوما قاصرا على السياسة، ودويلات المدن في عصر فجر السلالات تمتعت ببلورة فكر متناسق رسمت اطارا للفكر الوحدوي في جميع مجالات الحياة وما مجال الوحدة في نظام الحكم الا تتويجا لهذا التناسق. لم يكن الوصول لهذه النتيجة وليدة الصدفة، فقد عانى من سكن منطقة بلاد الرافدين ما عاناه من تحدي للطبيعة والبيئة القسرية لبلاده فأمطاره قاسية تدمر سقوف البيوت على ساكنيها، والامطار والبرد (الحالوب) يكسر سيقان الحنطة والشعير قبل حصادها، وفيضانه قاسي يأتي في غير اوقاته ويدمر زرعه، وهناك التحديات الداخلية في المنازعات بين دويلات المدن والتحديات الخارجية واخطرها الاحتلال وما يخلف من دمار للمدن كل هذه العوامل مجتمعة صاغت اطارا فلسفيا غايته الاساس الفكر الوحدوي الذي ارسى (دولة القطر الواحد) لتصبح جميع دويلات المدن السومرية دولة واحدة مركزية تنشر في ربوع ارضه السلم والامان تقوده نحو الازدهار والقضاء على جميع المخاطر حتى لو كان تحدي الطبيعة نفسها، ببناء السدود وشق الانهار نحو منخفضات تخفف وطأة الفيضانات، وتقف بوجه المعتدي لتتخلص من التحديات الخارجية بعد ان قد قضت على التحديات الداخلية بتوحيد المدن. لقد صنعت الوحدة حضارة وتاريخ لشعب تميزت حضارته واصبحت من اعظم حضارات العالم القديم.

الطبيعة ومؤثراتها في الفكر الوحدوي لدويلات المدن السومرية:

اتسمت البيئة في حضارة بالد الرافدين بخصوصية ساهمت مع عوامل عدة في وحدة دويلات المدن السومرية في حضارة العراق القديم ،فالعوامل الداخلية وكان لها تثير كثير من المنافسات بين الممالك السومرية كالأرض الخصبة او قناة الماء او الطرق التجارية ادت بالضرورة الى نشوء نزاعات بين الممالك السومرية ارهقت شعوبها. وعوامل خارجية مثل الاحتلال من دويلات وممالك مجاورة للمدن السومرية تنافسها في التجارة وتضييق الخناق عليها كلها عوامل مضافة اثرت في تطور النظام السياسي لدويلات المدن السومرية نحو بلورة مفهوم للوحدة قاد الى توحيد الجهود ليؤطر نظاما سياسيا وحد الممالك وقفز بخطوة

سريعة لإنشاء امبراطورية عدت الاسبق في تاريخ الانظمة السياسية في الشرق الادنى القديم اصبحت ضرورة متبعة لكل السلالات الحاكمة التي حكمت بلاد الرافدين بعد عصر فجر السلالات و قادت الى القضاء على التفكك الداخلي وتوحيد الجهود للتوسع خارج اراضيه فنشر السلم في ربوع بلاد الرافدين والمناطق التي توسع فيها فأزدهرت التجارة وطورت مدنية وحضارة انتشرت في جميع مناطق الشرق الادنى القديم.

كان للطبيعة الجغرافية في حضارة بلاد الرافدين دورا أساسيا في تحديد واقعه ومستقبله الحضاري، اذ حدوده الطبيعية مفتوحة على كل الجهات ،ولا يوجد مانع جغرافي يقيد الحراك البشري للأقوام التي استوطنت فيه وكذلك الاقوام التي حاولت احتلاله، كما ان طبيعته الجغرافية القاسية من امطار ورياح قوية و فيضان نهري دجلة والفرات اثر في مسيرة تاريخ شعوبه (الخلف، ١٩٦١، ص٣٧)، لذلك صارعت الاقوام التي استقرت في بلاد الرافدين الطبيعة من اجل السيطرة عليها و تطوير القدرة في تحييد قساوتها وعنفها، ونتج عن هذا الصراع بدون شك حضارة عظيمة كانت من ازهى حضارات الشرق الأدنى القديم.

اشارت النصوص المسمارية الى رحلات تجارية تسير مع نهر الفرات من مدينة ماري الى المدن الجنوبية السومرية وصولا الى البحر الأسفل (الخليج العربي) مما منح تلك المدن مكانة تجارية وبالتالي مكانة اقتصادية وسياسية (الهاشمي، ١٩٨٠ ص ٣٨)، وهنا تتدخل العوامل الجغرافية في تقارب المدن وتطوير علاقاتها التجارية مع بعضها البعض لتصب في المستقبل في توحيد تلك المدن، اذ ساهم نهر الفرات بشكل مباشر ونتيجة استعمال انسيابية جريانه في عملية التجارة والتي من خلالها عمل حكام المدن السومرية في تقليل الضرائب على البضائع والحد من تحكم المدن في الاسوق التجارية التي تنتقل عبره البضائع وعدم احتكار السوق، كل هذا ساهم في توحيد تلك المدن تحت قيادة سياسية واحده ومركزيه تفرض قوانين وضرائب متساوية من اجل حرية نقل البضائع وانتعاش الاقتصاد الداخلي ومن ثم الخارجي.

التحديات الخارجية:

شهد بلاد الرافدين منذ بواكير نهضته تحديات خارجية كان الاعتداء اهم اشكالها فعيلام في جبهته الشرقية وجهت انظارها على دويلاته الناشئة والغنية بمواردها الاولية لذلك

عدت عيلام العدو الاول لدويلات المدن السومرية وحرص حكام دويلات المدن على درئ مخاطر هذه الاعتداءات وفي عصور مبكرة اولها في زمن الطور الثاني من عصر فجر السلالات الثاني، ففي جدول اثبات الملوك السومريين ذكر الحاكم اينميبراكيسي بأنه استطاع الانتصار على عيلام (باقر، ٢٠٠٩، ٣٧٣/١) وهي اول اشارة عن اعتداء وحرب جرى بين دويلات المدن السومرية وبين عيلام لتتجدد الاشارة مرة اخرى في جدول اثبات الملوك السومريين بأن السلالة التي حكمت بعد سلالة اور مركز حكمها في مدينة اوان وهي دلالة على تسلط العيلاميين على دويلات المدن السومرية ، وبالرغم من اسماء الملوك الثلاثة الذين حكموا هذه السلالة مشوهة اسماءهم ولا يمكن قراءتها لتتبعها، اشار الى ملك يؤسس سلالة في خمازي او همازي وهي من مدن عيلام لا نعرف عنها شيء لكن معنى ذلك ان دويلات المدن السومرية ماتزال تحتلها عيلام او احد مدنها (باقر، ٢٠٠٩، ٣٤٥/١).

لم تتوقف التحديات بل نجد اقوام جديدة تظهر في المنطقة الشرقية كان لها دور في تهديد دويلات المدن السومرية اضافة الى الاقوام العيلامية وهي الاقوام الكوتية التي ساهمت في ما بعد بأسقاط الدولة الاكدية، ونجد اشارة للملك لوكال ـ آنيموندو بأنه فتح مناطق بعيدة امتدت الى جبال زاجروس وعدد الحكام التابعين له في بلاد عيلام وبلاد الكوتيين في الجهات الشمالية الشرقية (باقر، ٢٠٠٩، ٣٤٦/١).

يتضح ان حكام دويلات المدن قد تبلورت لديهم فكرة توحيد مدنهم بغية مواجهة التحديات الخارجية خاصة وان هناك تعدي على الحدود واحتلال لمدن سومرية ومنافسة تجارية من قبل المدن العيلامية التي طالما ارهقت حكام دويلات المدن السومرية وشغلت فكرهم في توفير الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي يؤمن الموارد المالية لرخاء مواطنيه من خلال التجارة، فعملوا على بذل الكثير من مواردهم الاقتصادية لدرء مخاطر الاعتداءات وتذليل كل ما يصب في حماية مدنها من جهة الحدود الشرقية التي اضحت تنذر بعدو تقليدي سوف يستمر ـ حتى بعد نجاح الفكر السياسي بإيجاد صيغة للحكم تؤطر وحدة اراضيه وايجاد صيغة لدرء الخطر على حدوده بالتوسع الى خارج هذه الحدود ـ في اثارة الفتن واستغلال ضعف السلطات الحاكمة ليقتنص مدينة ضعيفة من مدنه الحدودية وينقض عليها او يسقط سلالة حاكمة في مدنه وينسحب منها او يثير الفتن بين مدنه وبين السلطة

الشرعية بغية عدم بقاء الدويلات موحده لان ذلك التوحيد يهدد عيلام ومدنها. جاءت الاستجابة للتحديات الخارجية لدويلات المدن السومرية بظهور الفكر الوحدوي لدويلات مدنه.

التسمية والالقاب:

اطلق السومريون على مكان سكنهم أي الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين اسم ارض سيد القصب (KI.EN.GI) وهو مصطلح من جزئين (KI) التي تعني بلد او مستقر و (ENGI) التي تشير الى الهة الأرض وهو اله مدينة اريدو السومرية، وبذلك يصبح معناه مستقر او بلد الاله انكي (رو، ١٩٨٤، ص ٥٨٥) ، ان هذه التسمية الشاملة على المنطقة بأجمعها وليس تسمية كل مدينة باسمها دليل على الفكر الوحدوي لدى السومريين ، اذ ان تسمية ارض سيد القصب او بلد انكي الهة المياه توحي لدى الباحث ان السومريين كان لديهم الشعور الجمعي يضمهم و تجمعهم تسمية واحدة.

اخبرتنا الالقاب على تنامي الفكر الوحدوي لدى سكان بلاد الرافدين فلقب ملك كيش تلقب به الكثير من ملوك وحكام دويلات المدن السومرية الذين حكموا في كيش او غيرها من المدن السومرية، تلقب الملك ايتانا بلقب ملك كيش وكذلك الحاكم اي ـ اناتم حاكم لكش الذي منحته اياه الالهة :"اياننا بسبب حبها له فأعطته ملوكية كيش"(سلمان ، ٢٠٠٩، ص ١٤)، ووجد ختم اسطواني يعود الى الملك ميسانبيدا مؤسس سلالة اور الأولى ورد فيه انه ملك كيش، واتخذ هذا اللقب الملك ميسلم كذلك (بوتيرو، ١٩٨٩، ص ٧٩). ويرجع السبب في ذلك ان مدينة كيش كانت تتمتع بالقوة العسكرية وحجم مساحتها الكبير بالنسبة الى بقية المدن السومرية ،فضلا عن انها المدينة التي نزلت بها الملوكية، اذ ان كيش هي صاحبة الحق الإلهي في الحكم، اضافة الى طموحها في انشاء وحدة اكبر سياسيا تتبع فيها الدويلات الصغيرة الدويلة الكبيرة مما ادى الى نمو السلالة الملكية في كيش (باقر واخرون، ١٩٨٠، ص ١٢٥)، ورغم ان الملوكية قد نزلت على العديد من المدن السومرية سواء قبل الطوفان او بعده لكن يبدو ان تميز مدينة كيش بهذا اللقب المهم الذي يشير الى ان من تلقب به كأنما اخضع بقية المدن السومرية له سواء كان شكليا او فعليا.

هناك عدة اسباب في اشتهار مدينة كيش ومحاولتها فرض الوحدة بالقوة على بقية دويلات المدن السومرية، منها طبيعة سكانها ومساحتها الواسعة ومحاولتها للتوسع على حساب جيرانها اضافة الى نزاعها الداخلي مع اوما و ونزاعها الخارجي مع مدينة عيلام لكن يبقى السبب الاهم في تميز هذه المدينة كونها من اكبر المدن السومرية الجزرية فهي خليط من العرقين على حد سواء(السومري، والجزري).

ورغم ذلك نعلم ان الكثير من المدن السومرية لم تكن راضية بهذه السيطرة ، و حاولت التخلص من سيطرة مدينة كيش عليها او محاربتها للتخلص من تبعيتها لها ،"**علينا الا نخضع لبيت كيش بل نحارب بالسلاح**"(باقر، ١٩٨٠،ص ١٩٤).

اتخذ الحكام السومريين القابا اخرى منها ملك سومر، ولقب ملك البلاد، وأول من اتخذ هذه الألقاب هو الحاكم لوكال زاكيزي (سلمان، ٢٠٠٩، ص ١٤)، وكذلك من الألقاب الأخرى التي اتخذها الحكام السومريين ملك اور فضلا عن ملك الجهات الاربعة وحاكم سومر (الجادر، ١٩٨٥، ص١٢٠).

ومن هذه الألقاب التي اتخذها ملوك المدن السومرية يتراءى ان تطور النظام السياسي وجنوحه نحو الوحدة والقضاء على التفرقة كان متبلورا لدى فكر حكام دويلات المدن السومرية، فتلقبهم بلقب ملك كيش اشهر المدن السومرية او لقب ملك الجهات الأربعة دلالة على محاولة ايجاد فكرة توحيد جميع الأراضي السومرية وغير السومرية و ان فكرة البلاد يجب ان تتوحد وفق نظام سياسي يجمع جميع الممالك، كي يتم القضاء على التفتت او التشرذم الذي كانت عليه هذه المدن، ويجب ان تخضع هذه المدن ولو بصورة غير مباشره او مباشرة الى حاكم واحد بتفويض من الالهة الرئيسية التي منحته حق الحكم المطلق على جميع دويلات المدن السومرية.

ونرى في ملحمة كلكامش هذه الرؤية الوحدوية على لسان كاتب الأسطورة، فالإله انليل قد اختار لملوكية بلاد سومر الملك كلكامش وحسب النص الذي ورد في اسطورة كلكامش "**قال انكيدو الى كلكامش ، انت الابن الاوحد ولدتك امك بقرة الاسوار الوحشية الربة ننسون، ان رأسك عال فوق الجميع وقدر اليك انليل الملوكية على البشر**" (سليمان والأحمد، ١٩٧٨، ص ١٣٢).

الملوكية ودورها في التوحيد السياسي(جداول اثبات الملوك السومريين):

تعتمد الملوكية من وجهة نظر سكان بلاد الرافدين على العناصر الحاسمة لوجودها وتكوينها واستمرارها، وعلى راس الملوكية السياسة والدين والبيئة، فالآلهة هي صاحبة السلطة والسيادة في مختلف جوانب الحياة منذ بدء الخليقة(سليمان، ١٩٩١، ص ٢٨)، ومن هنا نرى ان للآلهة الدور الحاسم في الجانب الوحدوي لسكان العراق القديم، فالآلهة عامل توحيد لا تشتيت فعبر سكان بلاد الرافدين عن افكارهم عن الملوكية بأنها نزلت من السماء، وان هناك ملك معين من قبل الالهة وعلى الجميع اتباعه، فهو رمز التوحيد لمعبوديه أينما استقروا في أي مدينة من مدنهم المختلفة، فالألوهية هي من تعطي الملوكية فالإله انليل كبير الالهة هو الذي يمنح الملوكية لمن يريد بقرار من بقية الالهة، فالملكية قد ارتبطت بصفات الاله انليل، و انليل اول من اصبح ملكا في السماء "الهة البلاد انو، انليل وانكي عقدوا مجلسا، اخذ انليل استشارة الالهة، في وسطهم اجلسوا الاله شمس، في وسطهم اجلسوا الالهة الكبيرة للآلهة ، اذ سابقا الملكية لم تكن قد وجدت في البلاد واعطي الحكم الى الالهة".(الشواف، ١٩٩٧، ص ٣١٨)

كان بلاد الرافدين مقسما الى دويلات مدن ولكل دويلة مدينة مركز للمدينة وقرى تابعة لها كما لها معبدها الخاص واراضيها الخاصة بها، فالآلهة هي صاحبة السلطة العليا لتلك المدن والملوك هم من ينوبون عن الالهة في حكم المدن بالعدل والانصاف(كريمر، ١٩٥٧، ص ٥٦)، "بعد ان نزلت الملوكية من السماء، وبعد ان انزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء ...واعطيت الملوكية لمدينة اريدو الى نوديمود الحاكم والثانية الى بادتيبرا..."(كريمر، ١٩٥٧، ص ٢٥٤).

ترتب على نزول الملكية من السماء واعطائها الى البشر، التشابه في الحكم، فكما ان الالهة كانت متعددة ومتنوعة ومختلفة القوى، كانت هناك مدن متعددة وحكام مختلفي القوى، فكأنما مجمع الالهة الارضي هو نسخة طبق الاصل من مجمع الالهة السماوي، ولكن وحسب رؤية الالهة يجب ان يكون هناك حاكم رئيس تخضع له كل المدن كي يكون مشابها لمجلس الالهة، و كما ان هناك اله رئيس تستمع وتخضع له بقية الالهة، ويقدمون له النصح والمشورة يجب ان يطبق الامر نفسه على النظام السياسي في الارض وعندما لم يحدث

ذلك، غضبت الالهة على البشر واحدثت الطوفان، وان سبب الطوفان هو الفوضى، و نظره على اسطورة الطوفان نجد ان التجزئة و التشتت بالأساس كان هو السبب في حدوثه :" جمع انليل مجلس الالهة وقال مخاطبا ابناءه الالهة، لقد اصبح ضجيج البشر شديد علي ... ولم يغمض لي جفن بسبب ضجيجهم، فلينتشر الوباء بين الناس وليقضي الاله نمتار على صخبهم، ولتفتك الامراض والاوبئة بهم".(يحيى، ٢٠٠٩، ص ٣٤٦) ، اذا سبب الطوفان والقضاء على البشرية كان بقرار من الالهة، وكما واضح من النص ان القصد هو الضجيج والضوضاء التي اثارها البشر لذلك غضبت الالهة منه وقررت القضاء عليهم، لكن يبدو ان عدم وجود حكومة مركزية تلجم هؤلاء البشر وتجمعهم تحت سلطه واحدة وتقضي على الفرقة بينهم كانت من اهم الأسباب التي جعلت الالهة تحاول انهاء البشرية، ويمكن الاستنتاج ان عدم وحدة دويلات المدن وخضوعها لحاكم واحد ينهي هذه الخلافات والنزاعات كان نتيجته عدم ظهور نظام او قانون ينظم الحياة اليومية لسكان دويلات المدن مما ادى الى ضجيج اغضب الآلهة فأخذت قرار ابادته، فوجود ملك حاكم لكل تلك الدويلات سيجعل نظام الحكم في بلاد الرافدين مشابه الى نظام الحكم في مجمع الالهة، اذ سيكون هناك ملك حاكم كما يوجد الهه رئيس ، وهذا الملك هو من سيخضع له جميع الحكام البقية كما تخضع للإله انو بقية الالهة. ومما يدعم هذا الراي ان الاله انكي او أيا قد افشى سر الطوفان الى احد البشر وهو البشري زيوسودرا، " تدبر انكي واخبر احد البشر، اذ عمد زيوسودرا الى بناء الفلك ... وانقذ زيوسودرا، واصطفى زيوسودرا من قبل الاله انو وانليل ووهباه الحياة وبقى خالدا".(كريمر ، ١٩٥٧، ص ٢٥٨) ومن هنا نستشف ان الالهة قررت بقاء احد البشر مع من اطاعه او صدق بالنبوءة، فضلا عن بقاء الحيوانات، مما يظهر ان الالهة لم ترد القضاء على البشر بقدر القضاء على الضوضاء والفوضوية الذي كان عليه البشر، وانها اختارت احد البشر من اجل بقاء العنصر البشري . فضلا عن محاولة الالهة وكما هو موجود في التفكير القديم الوحدة من اجل التشبه بوحدة الالهة او القضاء على جميع الدويلات التي كانت في تناحر، لذلك كان الطوفان حدا فاصلا بين مرحلتين زمنيتين مختلفين، وهما اما الوحدة او القضاء على جميع السكان.

فلسفة الوحدة في الفكر السياسي لحكام دويلات المدن السومرية:

درج البشر من خلال خبراتهم المتوارثة على محاولة لفهم كل ما حولهم. ومن خلال الممارسات الانسانية تتبلور افكار عن اسباب الوجود والخلق، ليطور من منظوره الخاص و تجاربه على ارض الواقع وكل حسب بيئته، قصة دينية عن فهمه لكل ما يحدث حوله. وبالضرورة يعممها حسب تصوره على الوجود، وتتطور القصص او الاسطورة الى قصص الخلق، والكيفية التي تمت بها هذه القصة، ومن ثم يتحول الى الحكم ومفهوم نشوء الكيانات السياسية، ليتغير فكره السياسي فيما بعد نشوء الكيانات بسبب مواجهة التحديات التي تصيغ برنامجه للحكم والدولة، ثم يضع التطورات الكبيرة التي تحصل لهذه الكيانات ـ مدن، او ممالك، او دول ـ واقعا في تطور افكاره عن الحكم والفكر السياسي، وكان هذا المفهوم حاضرا في دويلات المدن التي نشأت في عصر فجر السلالات الذي امتد من (٢٨٠٠ ـ ٢٤٠٠ق.م) ونخص هذه الحقبة لأنها تمثل مرحلة التاريخ بظهور الكتابة في حوالي ٣٥٠٠ق.م، ولحين تطورت الافكار واصبح هناك نضوج لتوثيق الاحداث، وصلنا الكثير من الافكار في كل ما يشغل فكر الانسان الذي يعيش في هذه المنطقة، والذي يهمنا من كل ذلك الافكار السياسية والكيفية التي تطور منها مفهوم الوحدة موضوع البحث والاستعانة بنصوص القصص الدينية المعبرة عن واقع الانسان كما مر بنا سابقا، ففي بداية حياته ان كل ما يجري ما هو الا محاكاة لمجمع الهي خلق الارض وصوره على ما موجود في السماء بمعنى ان كل ما موجود في الارض من خلق ومدن وحكم وملكية وامور اخرى هي بالأصل محاكاة لما موجود في مجمع الالهة في السماء.

ومن النصوص السومرية التي وصلت هي جداول اثبات الملوك السومريين ان اهم ما يميز تلك المرحلة من الناحية السياسية ان منطقة السومريين في جنوب العراق كانت عبارة عن دويلات مدن مجزئة كل مدينة فيها، مستقلة ومنفصلة عن المدن الاخرى تتصارع فيما بينها على الاراضي الزراعية ومصادر مياه الري(باقر، ٢٠٠٩، ص٣١٧)، وكثيرا ما كانت تتضارب مصالح هذه المدن مع ما تتطلبه المدن من تنظيم شؤون الادارة، والري، والتجارة الخارجية التي كانت ذا اهمية كبيرة لازدهار المدن وتطور مدنيتها وكل هذا بالتأكيد يصب

عكسيا في قيام وحدة سياسية بين هذه الدول بل يكاد التفكير به اسطورة من الاساطير الملحمية.

وبالرغم من ذلك نجد ان تحديات الجغرافية والتحديات الداخلية والخارجية جعلت الفكر السياسي للحكام يجنح الى محاولات الوحدة مع الوعي ان الطموح الشخصي للحكام موجود لكن هذا لا يعني استبعاد محاولة القضاء على كل ما يضعف وحدة المدن والوصول الى اهم نقطة تشكل قوة الارتكاز في الانطلاق الى صنع الحضارة كانت الوحدة حجر الارتكاز فيه.

ولعل اقدم الملوك الذين حاولوا توحيد البلاد دون معرفة منطقة نفوذه واين وصل في سيطرته على البلاد هو الملك ايتانا الراعي ملك مدينة كيش اذ ذكر في جداول اثبات الملوك انه وطد جميع البلاد(باقر، ٢٠٠٩، ص٣٢١) و يصف طه باقر هذه العبارة بأنها حقيقة تاريخية تفيد في اتساع حكم الملك و نضيف بأنها قد تكون البدايات الاولى لتطور النظام السياسي نحو محاولة ايجاد صيغة لتوحيد البلاد ليس بالمعنى الحرفي لكلمة التوحيد لكن على الاقل ظهور اشارة تدل على خطوة جديدة غير متبعة سابقا خاصة وان ايتانا الراعي صعد الى السماء ونزل ومعه التاج الملكي والصولجان وعصا الراعي وهي اشارات الملوكية فهل عنت الاسطورة انه اول ملك بعد الطوفان؟ اضافة الى عروجه الى السماء كان من اسبابه الحصول على نبتة الانجاب لان امرأته عاقر ويبدو انه نجح في مسعاه فخلفه على الحكم ابنه باليخ.(باقر، ٢٠٠٩، ص٣٣٦)

اشارت النصوص الى شخصية اخرى في عصر فجر السلالات كان له شأن كبير نتيجة نفوذه الواسع بالرغم من انه لم يدخل في جداول اثبات الملوك رجح باقر بانه حكم جميع ممالك المدن السومرية :" حكم القطر كله".(باقر، ٢٠٠٩، ص٣٣٨) او مدينة ما حتى اطلق البعض على الطور الذي حكم فيه بعصر ميسلم (باقر، ٢٠٠٩، ص٣٣٨) وبعيدا عن الترجيحات فمحاولاته لفض نزاع اوما ولكش وصفت بالتاريخ بأنها اقدم وساطة والراجح انهم حكام كانوا تحت نفوذه، ووصل الى مدينة ادب وكذلك ذكر في نص المصالحة على حجر الحدود اسم الاله ستران وهو اله مدينة دير على الحدود قرب عيلام في منطقة بدرة الحالية وقد تعني ان سلطاته امتدت الى هذه المدينة، ان محاولات ميسلم الحثيثة نحو الاستقرار وتوحيد كلمة المدن ونبذ المنازعات الداخلية ماهي الا دلالة على ظهور وعي

بحاجة هذه الدويلات لتوحيد كلمتها، اذ ما ارادت التطور نحو المدنية والازدهار الحضاري. وقد استعرضنا اعلاه الالقاب وماذا تعني مدلولاتها فلو لم يصح قول باقر في احتمالية اسمه قد يكون ثاني اسم والذي ظهر مخروما في سلالة كيش في جداول اثبات الملوك نرجح انه لقب يشير الى امتداد سلطانه الى مناطق واسعة وهذا حذو جميع حكام عصر فجر السلالات حين يمدون نفوذهم على المدن الاخرى (باقر، ٢٠٠٩، ص٣٣٩. و انظر التسمية والالقاب في البحث نفسه).

تتجدد الاشارة الى حكام حملوا لقب ملك كدلالة على النفوذ وتنامي السلطات. فالحاكم مسكيكاشر مؤسس سلالة الوركاء اتخذ هذا اللقب "وذهب الى البحر وارتقى الجبال"، لكن الاشارات لم ترد فيها مناطق النفوذ او المدن التي كانت تابعه له. وان ابنه وخليفته في الحكم اينمركار صاحب الاعمال البطولية والذي مر الكلام عنه سابقا كان قد حاول اخضاع حاكم اراتا العيلامي سلميا او بالحرب كي يؤمن المواد الاولية التي تحتاجها مدينة الوركاء ولان اراتا تقع على طرق القوافل التجارية التي تؤدي الى هذه المواد كان يجب ضمها الى سلطانه(باقر، ٢٠٠٩ ص٣٤٠) وهنا نشير الى تطور اخر في النظام السياسي وشكل نظام الحكم في دويلات المدن السومرية الذي سمح لمن يحكم من بعده ان يفكر بتوسيع نفوذه بعد توحيد الممالك على حساب مناطق خارجة عن حدود القطر ليضمن اولا طرق التجارة وامداداتها وثانيا لحماية الحدود من الاعتداءات الخارجية كما فعل سرجون الاكدي مثلا وملوك السلالات من بعده. وهو تحول ليس بالضرورة ايجابيا لأنه اعطى للأقوام المجاورة الحق بإحتلال بلاد الرافدين كلما ضعفت حكومته المركزية.

وذكرت جداول اثبات الملوك محاولات اخرى لتوحيد ممالك دويلات المدن السومرية جاءت على يد مؤسس مدينة اور وحاكمها ميسانيبدا الذي فرض سيطرته على مدينة نفر المقدسة وانتزعها من يد نفوذ مدينة كيش و يحتمل انها دخلت ضمن حكمه واتخذ لقب كيش كدلالة لتوسع سلطاته على دويلات المدن السومرية(باقر، ٢٠٠٩، ص٤٤٤ ـ ٤٤٥). وتستمر الاشارات بعد الملك ميسانيبدا عن ملوك فرضوا محاولاتهم لتوحيد المدن السومرية و اشار البعض بوصول فتوحاتهم الى جبال زاكروس كالملك آنيموندو حاكم مدينة ادب الذي اشار في كتاباته عن عدد الحكام التابعين له في كل من بلاد عيلام وبلاد الكوتيين(باقر،

٢٠٠٩، ص٤٤٦). اما الملك اياناتم والذي لم تذكر اخباره في جداول اثبات الملوك انما وصلتنا عن طريق سجلات مدينة لكش نفسها والتي ذكرت بأن مدينة لكش بلغت في عهده من الازدهار والتوسع كونها بسطت نفوذها على جميع بلاد سومر وذكر اياناتم في كتاباته بأنه حصل على ملوكية سومر واتخذ على عادة الملوك الذين يسيطرون على دويلات المدن السومرية لقب ملك كيش واستطاع الانتصار على مدينة عيلام بعد توطيد حكمه، الا اننا نجد اشارة جديدة للتوسع خارج حدود الدولة وهو التوسع نحو الشمال الغربي للبلاد فسيطر على مملكة ماري وبلاد السوبارتو (باقر، ٢٠٠٩ ص٣٥١)، وهو منحى جديد في التوسع في النظام السياسي لدويلات المدن السومرية بعد ان كانت المناطق الشمالية الشرقية هي مناطق توسعه نرجح اسباب هذا التغيير الى ايجاد طرق تجارية جديدة او ايجاد مناطق جديدة للمواد الاولية التي تحتاجها دويلات المدن السومرية.

لوكال زاكيزي وحلم الوحدة:

كان حاكم مدينة اوما الملك لوكال زاكيزي اخر حاكم لدويلات المدن السومرية ،حكم مدة (٢٥ عاما)، ويعد اول ملك نجح في تحقيق الوحدة لدويلات المدن السومرية شملت منطقة نفوذ تمتد من البحر السفلي (الخليج العربي) الى البحر العلوي (البحر الابيض المتوسط) (الشيخلي،١٩٨٨، ص ٣٣)، لقد استطاع لوكال زاكيزي بفضل قدرته العسكرية الفذة وبراعته في الحرب والقتال من الانتصار على اقوى حكام مدينة لكش اورانميكينا (اوروكاجينا)، اذا سيطر لوكال زاكيزي على المدينة بعد نزاع لمدة ١٠٠ عام وأصبحت لكش واما دولة واحدة. (بوتيرو واخرون، ١٩٨٥، ص٩١)

وبعد ان احكم لوكال زاكيزي سيطرته على مدينة كيش، بدأ زاكيزي في الدخول في صراعات عديدة من اجل ضم المدن السومرية الأخرى، ومن اجل ذلك ادعى بانه ابن الالهة وحبيبها من خلال الصلاة والتوسل للآلهة وتقديم النذور لها، ولقب نفسه بلقب رسول الاله نيسابا (الأحمد، ١٩٧٥، ص٢٧٧)، ويبدو ان فكرة توحيد المدن السومرية قد اختمرت في ذهن الملك لوكال زاكيزي، منطلقا من الارهاصات القديمة للوحدة، لذلك كانت نتيجة اعماله هي محاولة تحقيق الوحدة لكل الدويلات وليس بين مدينتين، منطلقا من الإرث التاريخي لدويلات المدن السومرية. فأتجه زاكيزي بعد اخضاعه مدينة كيش الى مدينة اور واستطاع

السيطرة عليها ولقب نفسه بملك اور، فضلا عن ملك مدينة اريدو وادابا (بوتيرو واخرون،١٩٨٨، ص ٩٣)، كما استولى على مدينة الوركاء واسس السلالة الثالثة فيها ولقب نفسه بملك اوروك او الوركاء (باقر واخرون، ص١٣٥)، وبدأ لوكال زاكيزي يأخذ القابا اكثر شمولية بعد سيطرته على تلك المدن واتخذ لنفسه لقب ملك كيش.(سلمان ،٢٠٠٩، ص ١٥)

وبعد ان سيطر زاكيزي على جميع المدن السومرية في الجنوب، بدأ في الاتجاه نحو الأراضي الشمالية والشمالية الغربية لبلاد الرافدين، اذ سيطر على مدينة نفر ولقب نفسه بلقب اشاكو انليل (أي خادم الاله انليل) ، واهدى الى معبد الاله انليل في نفر بعض الاواني والاوعية مكتوبا عليها انه سيطر على المنطقة الممتدة من البحر السفلي الى البحر العلوي(الفتيان، ٢٠١١، ص ٤٩).

احكم الملك لوكال زاكيزي سيطرته على بلاد سومر و جعل حكمها تحت سلطة مركزية واحدة، لذلك تعددت القابه لإضفاء الشرعية على حكمه لدويلات المدن السومرية ومن هذه الألقاب وزير الاله سين، ملك البلاد، وملك الإقليم (لوكال كالاما)، ووكيل الاله انو،(بوتيرو واخرون، ١٩٨٨، ص ٩٣) ومن هذه الالقاب الجديدة او التي استحدثها لوكال زاكيزي، نرى انه رغم احتفاظه بالألقاب القديمة مثل لقب ملك كيش واريدو، أضاف لنفسه القاب جديدة كدلالة على سيطرته على جميع انحاء البلاد الذي لم يسبقه اليها اي ملك سومري او سلالة سومرية سوى من اتى من بعده واولهم سرجون الاكدي، كما تدل على انه أراد ان يظهر لسكان الدويلات السومرية مقدرته على الحكم وانه مفوض من قبل الالهة.

ويمكن القول ان عهده هو عهد ترسيخ الوحدة الوطنية عن طريق وحدة دويلات المدن السومرية أي بداية ظهور السلطة المركزية وبدايات تأسيس نواة لحكم يشمل اغلب المدن انذاك(سلمان، ٢٠٠٩، ١٥٩)، "**عندما اعطى انليل ملك البلدان جميعها ملوكية البلاد للوكال زاكيزي، وعندئذ لم يبق للإله انليل أي منافس له فأستلقى في ظل حكمه جميع الأقاليم بسلام، وابتهجت البلاد في عهده وانحنى جميع رؤساء سومر وحكام الأقطار الأجنبية كلها امامه في مدينة الوركاء، واور كأنها ثور تشمخ برأسها نحو السماء ولارسا**

مدينة اله الشمس اتو المحبوبة، تطلق صيحات الفرح واوما مدينة شارا المحبوبة ترفع سواعد عظيمة"(سلمان، ٢٠٠٩، ص ١٥).

لم يكن احكام سيطرة لوكال زاكيزي بقبضته على مختلف دويلات المدن السومرية بالأمر الهين، اذ كان الامر الأكثر صعوبة هو المحافظة على تلك السيطرة، فضلا عن مواجهة الاخطار الخارجية، وبالفعل نجحت محاولة التوحيد مدة خمسة وعشرون عاما بيد ان ظهور ملك منافس واكثر طموحا من لوكال ادى الى نهاية حكم لوكال زاكيزي في حدود عام ٢٣٧٠ق.م (سلمان ، ٢٠٠٩، ص ١٥)، "**دحرت اوروك ونقلت ملوكتيها الى اكد وفيها حكم سرجون كان ابوه بستانيا** "(علي، ١٩٨٩، ص٤٨).

ان الملك سرجون الاكدي بعد ان بسط سيطرته التدريجية على بلاد الرافدين ومن ثم الالتحام مع لوكال زاكيزي والانتصار عليه ودخول مدينة الوركاء بعد ان هدم اسوارها (رشيد، ١٩٨٥، ص ٢٤)، نفذ المفهوم الاول للفكر الوحدوي في بلاد الرافدين وهو دولة القطر الواحد اول منفذها الملك لوكال زاكيزي لكن طموح الملك سرجون كان اكبر واسمى في تأسيس كيان اشمل يقود نحو الازدهار وحماية البلد من كل اعتداء وذلك بالتوسع الى خارج حدود دولة القطر الواحد ليصبح مؤسس لمفهوم جديد في العالم هو مفهوم (الامبراطوري العالمي) ويصبح هو اول امبراطور في تاريخ العالم القديم والحديث.

الاستنتاجات :

١-لكل نتيجة عدة عوامل، وان نتيجة الوحدة في بلاد الرافدين يعود الى عدة عوامل ، كان منها عوامل داخلية وهي الاعم، وعوامل خارجية نبهت الى ضرورة الوحدة.

٢-من اهم عوامل الوحدة في ابلاد الرافدين كان العامل الجغرافي المتمثل بنهري دجلة والفرات فضلا عن العامل الجغرافي المتمثل بالأراضي المنبسطة والمتصلة بلا حدود.

٣-ساهم الدين والاقتصاد مساهمة فعالة في ايمان من سكن هذه المنطقة بالوحدة .

٤-بالرغم من عدم نجاح المحاولات العديدة التي قام بها الكثير من حكام دويلات المدن السومرية في سبيل توحيد البلاد الا انها ساهمت في بلورة النواة الاولى لتلك الفكرة.

٥-برهن اللقب في الطور الثاني والطور الثالث لعصر فجر السلالات كدلالة على سعة سلطان هؤلاء الحكام على باقي دويلات المدن الاخرى.

٦-تطورت الألقاب الملكية لاحقا ولم يعد ملك كيش يرمز الى حكام مدينة واحدة، وانما ظهرت القاب تدل على النزوع نحو الوحدة للمجتمع افي بلاد وادي الرافدين، ومنها ملك اور والوركاء وملك سومر.

٧-كان الطوفان حدا فاصلا بين مرحلتين مختلفتين في التاريخ ابلاد الرافدين ، فأما إقامة الوحدة والخضوع لحاكم واحد على شاكلة الالهة او الموت والدمار.

٨-وفي نهاية عصر فجر السلالات نجح الملك لوكال زاكيزي في تنفيذ مشروع الفكر الوحدوي لدويلات المدن السومرية ووضع النواة الاولى للفكر السياسي الجديد عنوانه (دولة القطر الواحد) مما ادى الى فسح المجال لمن جاء بعده بتطوير فلسفة الوحدة في النظام السياسي لمنظومة اشمل وهي الامبراطورية ليكون سرجون الاكدي اول منفذيها بتأسيسه اول امبراطورية في تاريخ العالم شملت أراضي واسعة من ضمنها سوريا وايران وتركيا بعد توحيد دويلات المدن في دولة القطر الواحد.

الهوامش والمصادر:

١- الأحمد، سامي سعيد، السومريون وتراثهم الحضاري، (بغداد، دار الحرية، ١٩٧٥).

٢- الأحمد، سامي سعيد، المدخل الى تاريخ العالم القديم، ج١، (بغداد ،مطبعة الجامعة، ١٩٧٨).

٣- باقر، طه، ملحمة كلكامش، ط٤، (بغداد، دار الشؤون الثقاغية،١٩٨٠).

٤- باقر، طه واخرون تاريخ العراق القديم الساسي، ج١، (بغداد، مطبعة الجامعة، ١٩٨٠).

٥- بوتيرو، جان واخرون، الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، تر:عامر سليمان، (الموصل، دار الكتب، ١٩٨٥).

٦- الجادر، وليد، التجمعات الزراعية الأولى ـ بحث ضمن كتاب المدينة ـ (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٥).

٧- الخلف، جاسم محمد، محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، ط٢، (القاهرة، بلا.م، ١٩٦١).

٨- رشيد، فوزي، الجيش والسلاح، بحث ضمن كتاب حضارة العراق، ج٢، (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٨).
٩- سلمان، حسين احمد، كتابة التاريخ في وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية، (بغداد، مكتبة مصر والمرتضى، ٢٠٠٩).
١٠- سليمان ،عامر والفتيان، احمد، محاضرات في التاريخ القديم، (الموصل، دار الكتب للطباعة، ١٩٧٨).
١١- سليمان، عامر، اللغة الاكدية (البابلية -الاشورية)، (الموصل، دار الكتب،١٩٩١).
١٢- الشواف، قاسم، ديوان الاساطير، ج٢، (بيروت ، دار الساقي، ١٩٩٧).
١٣- الشيخلي، عبد القادر عبد الجبار، التحديات في العصر البابلي القديم، ضمن كتاب العراق في مواجهة التحديات، ج١، (بغداد، دار الحرية، ١٩٨٨).
١٤- الطعان، عبد الرضا، الفكر السياسي في العراق القديم، (بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١).
١٥- علي، فاضل عبد الواحد، من الواح سومر الى التوراة، (بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٩).
١٦- الهاشمي، رضا جواد، اثار الخليج والجزيرة العربية، (بغداد، مطبعة جامعه بغداد، ١٩٨٠).
١٧- يحيى، أسامة عدنان، عصر الالهة دراسة في اساطير وادي الرافدين، (بغداد، مكتبة مصر والمرتضى، ٢٠٠٩).